مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

مجلة الدراسات اللغوية

المجلد الرابع عشر – العدد الأول . المحرم – ربيع الأول ١٤٣٣هـ/ ديسمبر – فبراير ٢٠١٢م

فصلية محكمة تعنى بدراسة النحو والصرف واللغويات والعروض

لهجات فَيْفاء

(جذور العربية)

عبدالله بن أحمد الفَيفي

(عضو مجلس الشورى- الأستاذ بجامعة الملك سعود)

(أصله محاضرة ألقيت بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

مساء الثلاثاء ٢٥/ ١/ ١٤٣٣هـ الموافق ٢٠/ ١٢/ ٢٠١١م)

مدخل

يقع الخلط كثيراً في الجدل الثقافي بين مشروعيّة دراسة اللهجات العربيّة عِلْميّاً وبين الترويج للعاميّات ثقافيّاً وإعلاميّاً. فدراسة اللهجات ضرورةٌ علميّة، وهي تصبّ في مصلحة العربيّة الفصحى نفسها. أمّا الترويج للعاميّة، فله مآرب أخرى، بعضها بريء، وبعضها مريب. وهو مريبٌ، لا بما يفتحه من فُرقةٍ لغويّة، وانقطاعٍ ثقافيّ فحسب، ولكن بما وراء ذلك من إحياء قِيَم فكريّة، وترسيخ أنساقٍ اجتماعيّةٍ، ليس أوّلَ مؤرّقاتها ما يمسّ الدِّين، ولا آخرَها ما يهدّد الوحدة الحضاريّة، بنَزْعِ ورقةِ التوتِ الأخيرة عنها: اللغة.

أمّا لماذا أرى دراسة اللهجات أكاديميّاً ضرورةً علميّة؟ فلأن اللغة العربيّة قد أُهمل منها أكثرَ ممّا سُجّل، وفُسّرت ظواهرها تفسيراتٍ تُضحك الثكلى أحياناً. فإذا كان (أبو عمرٍو ابنُ العلاء) قد قال: "ما انتهَى إليكم ممّا قالت العربُ إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم عِلْمٌ وشِعرٌ كثير"(١)، فإن اللغويين قد أهملوا كثيراً من ذلك القليل الذي جاءهم، استناداً إلى مقولة أخرى لأبي عمرو نفسه، هي: "ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيّتُهم بعربيّتنا"(٢). بل لعلّهم قد أهملوا من العربيّة أكثر مما سجّلوا؛ لأنهم قد أخذوا بمعيار عِلْميّ، لم يكن متاحاً في زمنهم خيرٌ منه. فاقتصروا على وسط الجزيرة، أو بالأحرى وسط نجد، إنْ في جمعهم اللغةَ والأدبَ أو في تقعيدهم، وأهملوا أنحاء الجزيرة الأخرى، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، بما في ذلك الحجاز، مهبطِ القرآن؛ بحُجّة أن لغة هؤلاء قد مسّها التغييرُ بعد الإسلام بدخول غير العربية من اللغات عليها(٣). بل إن تلك الأنحاء

(١) الجُمَحي (-٢٣١هـ)، طبقات الشعراء، تح. جوزف هل (بيروت: دار الكُتُب العلميّة)، ١٩٨٢م، ٣٤.

(٢) م.ن، ٢٩.

(٣) حتى إنهم لم يأخذوا "من أهل اليمن أصلاً؛ لمخالطتهم الهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم"، حسب تعليلاتهم! انظر حول ذلك، وأسباب تجنّبهم الأخذ عن أطراف الجزيرة، مثلاً: (السيوطي (-٩١١هـ)،=

من الجزيرة، المتّهمةَ لغتُها من قِبَل اللغويين، كانت منفتحةً على الأمم الأخرى ولغاتها منذ ما قبل الإسلام. فضُرب صفحاً عن تلك الجهات، إلاّ فيما ندر، وتُرك بها تراثٌ كثير، كأنه ليس بعربيّ، ومن ثَمَّ ضاع قطاعٌ واسع من العربيّة وأدبها. كأن أولئك اللغويين ظنّوا أن مَعاقل الجبال أهونُ مسلكاً وغزواً على غير العرب من فيافي القفار في الجزيرة، مع أن العكس هو الصحيح؛ فلقد تغلغلتْ الفارسيّة مثلاً في وسط الجزيرة، كما فعلتْ في شرقها وجنوبها الأقصى، حاملةً لغتَها وثقافتَها، منذ وقتٍ مبكّر من تاريخ العرب المعروف. على حين بقي لعزلة الجبال امتناعُها اللغويّ غالباً، حتى لقد ذكر عمارةُ بنُ علي بنِ زيدان الحكمي، المشهور بعمارة اليمني، في القرن السادس الهجري (-٥٦٩هـ= ١١٧٤م)- الذي وُلد في بقعة الزرايب في جبل مصيدة من جبال بني الغازي، المجاورة لفَيْفاء(١)- في حديثه عن (الزرايب) وأنها من أعمال ابن طرف، وأنها الوطن الذي وُلد فيه، وكان بها أهله إلى ذلك التاريخ الذي ألّف فيه كتابه "تاريخ اليمن"، أن جدّه أحمد بن محمّد

= الاقتراح في علم أصول النحو، عناية: محمود سليمان ياقوت (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م، (١٠٠- ١٠٤). ولئن صحّ ما زعموه في الأطراف القصوى، فإن سُكّان القطاعات الأخرى، كجبال السروات واليمن، لم يعرفوا الأحباش ولا الهنود، ولم يخالطوا غيرهم، حتى من العرب، ناهيك عن العجم. ثم مَن قال إن مخالطة الأعاجم، ولا سيما على نحوٍ محدودٍ، يُفسد نواميس اللغة العربية ومقاييسها الأصليّة بالضرورة؟ ولنا في العصر الحديث برهان، فلقد هيمن الأتراك على العالم العربي والإسلامي مئات السنين، كما استُعمرت بلدان عربية كثيرة من أُممٍ أخرى، كالإنجليز والفرنسيين والطليان، ومع ذلك- وعلى ضعف السليقة العربية، وانهيار موانع التأثّر والتاثير- لم تفسد في ألسنة الناس بنياتُ اللغة العربية الأصلية، ولا أنظمتها الأصيلة وآليّاتها الخاصّة، وكلّ ما حدث- آخر المطاف- لم يَعْدُ دخولَ بعض مفرداتٍ غير عربيّة إلى معجم الاستعمال. وهذا أمرٌ طبعيّ، بل قد يكون حيويّاً ومثرياً لأيّ لغة. ولم تظهر تلك الآثار العميقة، التي تهدّد سُنن العربية على نحوٍ ظاهرٍ، إلاّ في بعض تلك البلدان التي صاحب الاستعمارَ فيها تخطيطٌ ممنهجٌ استئصاليٌّ يهدف إلى محو العربية وثقافتها وإحلال سواهما محلّهما، كما في بعض بلدان المغرب العربي.

(١) انظر: العقيلي، محمّد بن أحمد، التاريخ الأدبي لمنطقة جازان، (نادي جازان الأدبي)، ١٩٩٠م، ١: ٨٧.

كان له حصن بعَكْوَة، مشيراً إلى أن العَكْوَتَيْن جبلان منيعان لا يطمع أحدٌ في حصارهما، وفيهما يقول راجز الحاجّ:

إذا رأيــــتِ جـــــبَلَي عكـــادِ
وعَـكْـوَتَـيْـن مـن مـكـانٍ بـــادي
فـــأبشــري يـا عينُ بالرُّقـــــادِ

ذاكراً أن جَبَلَي عكاد: فوق مدينة الزرايب، وأن أهلها باقون على اللغة العربيّة منذ الجاهليّة إلى يومه ذاك، لم تتغيَّر لغتُهم، بحُكم أنهم لم يختلطوا قط بأحدٍ من أهل الحَاضِرة، وهم أهل قرارٍ لا يظعنون عن ديارهم. ولذا أشار إلى أنه لمّا دخل زبيد في سنة ثلاثين وخمس مئة، يطلب الفقه، وكانت سنّه دون العشرين، جعل الفقهاء في جميع المدارس يتعجّبون من كونه لا يلحن في العربيّة؛ حتى إن أحد الفهاء، واسمه نصرالله بن سالم الحضرمي، قد أقسمَ بالله لقد قرأ الصبيُّ عمارة في النحو قراءةً كثيرةً. حتى عَرَفَ فيما بعد أن ذلك عن طبعٍ وتلقٍّ بيئيٍّ لا عن تعلُّمٍ مدرسيّ. كما أنه لما زاره والده وإخوته السبعة إلى زبيد أحضر الفقهاء، فتحدّثوا معهم، قال: "فلا والله ما لحن أحدٌ منهم إلاّ لحنةً واحدةً نقموها عليه."(١).

(١) انظر: عمارة الحَكَمي، تاريخ اليمن، (لندن: كلْبرت ورونكتُن)، ١٣٠٩هـ، ٢١. وقد نَقَلَ هذا عنه (الحموي، ياقوت (-٦٢٦هـ)، معجم البلدان، (عكاد)؛ (عكوتان). ثم نقله (الفيروزآبادي (-٨١٧هـ)، القاموس المحيط، (عكد)، مضيفاً أن عَكَاد: "قُرب زَبيد". وكذا نقله (الزبيدي (-١٢٠٥هـ)، تاج العروس، (عكد)، وأضاف- إلى جانب قول (الفيروزآبادي): إن عَكَاد: قُرب زَبيد- قوله: إن أهلها باقون على اللّغة الفَصيحة "إلى الآن"، قال: "ولا يُقيم الغَريبُ عندهم أكثرَ من ثلاث ليالٍ، خوفاً على لسانهم." وقد لفتت إشارة (الزبيدي) إلى امتداد فصاحة أهل عكاد، إلى زمنه- أي القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، من خلال قوله: "إلى الآن"- (الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠): ١: ١٩٤)، مشيراً إلى أنه لا يُعرف قوم خلصت لغتهم غير أولئك "العكاديّين"، مستدلاً ممّا أورده (الحموي) كذلك على: أنه لم يكن يُعرف في زمنه غيرهم على تلك الصفة. مضيفاً أن لسان البدو النازلين في الجنوب من شبه الجزيرة لا يزال لسانهم إلى اليوم أكثر شبهاً بالفصيح من بعض الوجوه من سائر العرب. ولنا مع هؤلاء وقفات: =

....

= أ. أين تقع "الزرايب"، التي أشار إليها عمارة؟ لقد تقدَّم أنها في جبل مصيدة من جبال بني الغازي، حسب تحديد العقيلي.

ب. أين تقع "العَكْوَتان"؟ إنهما جبلان، ما زالا يُعرفان باسمهما إلى الآن، في أعلاهما فوّهتا بركان، يُريان من بعض جهات فَيفاء. ومعنى العَكْوَة في العربية: أَصلُ الذَّنَب، حيثُ عَرِيَ من الشَّعَرِ من مَغْرِز الذَّنَب، وعكَى الضَّبُّ بذَنَبه: لواه، وشاةٌ عَكْواءُ: بيضاءُ الذَّنَب وسائرُها أَسْوَدُ، وقيل: الشاةُ التي ابْيَضَّ مؤَخَّرُها واسْوَدَّ سائرُها. وعُكْوَةُ كلِّ شيء: غلَظُه ومُعْظَمُه. والعُكْوَة: الحُجْزة الغَليظة. وعَكا بإزاره عَكْواً: أعْظَم حُجْزَتَه وغَلَّظها. والعاكي: الغَزّالُ الذي يبيع العُكَى، جمع عُكْوَة، وهي الغَزْلُ الذي يَخْرُج من المِغْزَل. تُسمَّى بلهجات فَيفاء وبني مالك وبني منبّه وأماكن أخرى من اليَمن: عكاوَة، جمعها: عَكاوٍ. ويقال: عَكا بإزارِه يَعْكُو عُكِيّاً أَغْلَظَ مَعْقِدَه، وقيل: إذا شدَّه قالصاً عن بَطْنِه لئَلّا يَسْتَرْخِي لِضِخَمِ بطنه؛ قال ابن مقبل:

... شُمٌّ مَخامِيْصُ لا يَعْكُوْنَ بالأُزُرِ

والعَكْوَةُ والعُكْوَةُ جميعاً: عَقَبٌ يُشَقُّ ثم يُفتَل فَتْلَين كما يُفْتَلُ المخراقُ. وعَكَت المرأة شَعْرَها إذا لم تُرْسِلْه. والعَكْوَة كذلك: النُّقْرة في ذقن الصبيّ. (يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، (عكا). ومن خلال هذا الحقل الدلاليّ اشتُقّ اسم عَكْوَة، لالتفاف فوّهتها ذات الحمم البركاني.

ج. أين تقع "عكاد"؟ هما جبلان صغيران، يسمِّيهما بعض الناس اليوم: "العكادين"، في درب بني شُعبة، موقعهما بين الدَّرْب والمطعن، جهةَ الجنوب الشرقي من الدَّرْب، جُعلت فوقهما اليوم بعض أبراجٍ للاتصالات. ويشير (العقيلي، محمّد بن أحمد)، في تحقيقه لكتاب (البهكلي، عبدالرحمن بن أحمد، نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تكملة: الحسن بن أحمد عاكش، (جازان: مطابع جازان)، ١٩٨٦م، ٢١٣– ٢١٤)، إلى أن عكاد غرب خطّ الإسفلت، وليس قرب عكاد أو حولها جبل باسم عكوتين، وإنما العكوتان عند قرية جخيرة، في المكان المحدّد أعلاه، ويبعدان عن عكاد مسافة ٧٥ كيلاً.

د. كيف يقول صاحب "التاج"– وهو قد أقام بزَبيد وانتسب إليها، ويُفترض أنه أعرف بديارها وما جاورها– إن عكاد بقرب زَبيد؟ ذلك محمولٌ على: نَقْله كلام (الفيروزآبادي) دون تدقيق، ولعلّ كلام (الفيروزآبادي) بدوره تصحيفٌ في الأصل عن عبارة (عمارة): إن عكاد "فوق الزرايب"، ملتبساً ذلك بما ساقه من بَعدُ عن زَبيد. أو ربما كان القول بقُرب عكاد من زبيد مبنيّاً على النسبيّة في مقياس القرب والبعد، ولاسيما أن كليهما من جهات اليمن، بمفهوم اليمن القديم، وإلاّ فبينهما بَون مكانيّ شاسع. وهؤلاء– على كلّ حال– إنما ينقلون عن عُمارة، وعُمارة من أبناء تلك البلاد، وهو الحُجّة في معرفتها، ولم يقل ما قالوه.

هـ. عمَّ كان يتحدّث (عمارة) في مسألة الفصاحة والبقاء على العربية؟ قال نصّاً: "وجبلا عكاد فوق=

وعلى الرغم ممّا قد يتّسم به أسلوب عمارة من مبالغاتِ شاعرٍ، ولاسيما في مقام الفخر- حتى إنه ليزعم أن جَدَّه لأبيه، زيدان بن أحمد، كان يقول: "أنا أَعُدّ من أسلافي أحدَ عشرَ جَداً، ما منهم إلاّ عالم مصنِّف"(١)- على الرغم من ذلك فليس كلامه ببعيد عن التصديق. وما قاله عن تلك الجبال ينطبق على جبال فَيْفاء وما جاورها. ونحن حين نذكر اليوم أن ظواهر لغويّة- ممّا يتكرّر في الدراسات الحديثة أنه قد امّحَى من اللهجات العربيّة- ما زال موجوداً في لهجاتنا، لا يصدّقنا أحد.

وخلاصة القول: إن اللهجة الفَيْفيّة- أو غيرها من اللهجات العربيّة- لا تسوِّغ أصالتُها استمراريّتَها أو الترويجَ لها أو ترسيخَها بالشِّعر والإعلام بحالٍ من الأحوال؛ لأن الطموح النابه في أجيال المستقبل ينبغي أن يتّجه إلى تخطّي اللهجات إلى

= مدينة الزرايب، وأهلها باقون على اللغة العربية..." . فأوّلاً، قوله "فوق" إشارة إلى الجهة، وكأنه يعني: "شَمال" الزرايب، لا أنهما في مكان واحد. أمّا أبيات الراجز، فلا تعني بالضرورة تجاور جبلَي "عكاد" و"العكوتين"، وإنما ضُربتْ هذه الأماكن مثلاً على فرح الحاجّ بالعودة إلى تلك الديار، حين يرى تلك الجبال على دربه. غير أن الوهم الآخر الذي وقع فيه القدماء والمحدثون هو في من وصف (عمارة) بعضَ أهل تلك الجهات بالفصاحة. فهو إنما تحدَّث عن أهله في جهة الزرايب والعكوتين، حيث قال، بعد تحديده جبلَي عكاد بـ"فوق مدينة الزرايب": "وأهلها باقون على اللغة العربية"، فالضمير هنا عائد على "مدينة الزرايب"، وكل كلامه اللاحق هو عن أهله فيها، لا عن (عكاد)، التي جاء ذكرها عَرَضاً في كلام الراجز، ولا عن (العكاديّين)، كما توهّم الواهمون. وإنْ كان هذا لا ينفي فصاحة هؤلاء أيضاً، بيد أن الاستشهاد بقول عمارة على ذلك لا وجه له. أمّا استدلال الرافعي بكلام صاحب "التاج"، وكلام (الحموي) على بقاء اللسان العربي الفصيح إلى زمنيهما، فهو أوّلاً- وإنْ صحّ احتمالاً- مبنيٌّ على ذلك الوهم المشار إليه، وعدم الوقوف على نصّ عمارة؛ حيث تكلّم عن (الزرايب)، فذهب الزبيدي والحموي يتكلّمان عن (عكاد)! ثم إننا لا نملك أن نثق بدقّة ما أورده (الزبيدي)، حتى عمّن وصفهم عمارة، أي (أهل الزرايب والعكوتين)؛ لأننا قد رأينا اعتماده على نقل عبارات سابقيه دون تمحيص. ولعلّه إنما ينقل كذلك إشارةً شبيهةً نجدها لدى (الحموي)، في قوله: "باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم". وقد رأينا لَبس الاثنين فيما نقلاه عن (عمارة) في تحديدهما مكان أولئك المعنيّين بالفصاحة، بل في تحديد جبلَي عكاد نفسهما، فكيف بمعرفتهم بلغة أهالي تلك الديار؟!

(١) انظر: عمارة الحَكَمي، النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصرية، عناية: هرتويغ درنبُرغ (مدينة شالُوْن- فرنسا: مَرْسَوْ)، ١٨٩٧م، ٨.

العربيّة الفصحى الجامعة للأُمّة، لغةِ القرآن والتاريخ والحضارة، غير أن دراسة اللهجات تظلّ معيناً خصباً في الوعي المعاصر بجذور لغتنا العربيّة، وإعادة النظر في جهود القدماء في دراستها، وهذا ما أسعى إليه.

إن البنية اللغوية والنحوية، في لهجات فَيْفاء، وكذا البنية المعجمية، والبنية شعرية، تُجيب عن خلافات لغوية قديمة، كان يسوقها العلماء في جدليّاتهم المتعلقة باللغة العربية، مع غياب علمهم الدقيق باللهجات العربية والبيئات العربية.

وقد آن أن يعيد الدارسون النظر النقديّ في كُتب التراث اللغويّ في ضوء المعرفة باللهجات العربيّة، ولاسيما لهجات الجزيرة العربية. وفيما يلي نماذج من تلك البنيات.

١- نماذج من البنية اللغوية والنحوية:

[أ] همزة النداء: يستعملونها كما يستعملون في النداء "ها"، وكأنها تحوير لهَجي لأداة النداء: "يا". كما يستخدمون: "وا". وفي أساليبهم في النداء يسوق (العقيلي)(١) نموذجين- على ما وقع فيهما لديه، وفي تفسيره إيّاهما، من أخطاء- وهما:

النموذج الأول: "وَيَزِمْ قاسِمْ، وَايَزْ! أنتَ بادٍ، وَيَزْ؟! مَا لَّ خَيرْ، وادْعِ الجابرِ مْسالِمْ، قِلْ لَوْ: قال الأمير: يَستِلْ نَحوْ ذِلحِيْنْ، ويَاهَبْهَا مَرَّةْ؛ بها بْحاجَتُوْ، ولا يَلْهِي."

المعنى: "وا يزيد بن قاسم، وا يزيد! أأنت بادٍ، وا يزيد؟! ما [هناك] إلاّ خيرٌ، وادعُ جابر بن سالم، قُلْ له: قال الأمير: ليَصِلْ نَحْوَه هذا الحِين، وليَهَبْها [=جيئته] مرّةً [واحدة]؛ فهو بحاجة إليه، ولا يلهَى [بشيء عن سرعة المجيء]".

وهكذا تبدو الكلمات فصيحة والتراكيب مستقيمة العربية، مع بعض اللكنة

(١) تاريخ المخلاف السليماني، (الرياض: دار اليمامة)، ١٩٨٢م، ١: ٨٧.

اللهجية والحذف لما هو مفهوم من السياق.

النموذج الآخر: "وَيَزْ! بِدّي أواشِعْجَ أَيْلَ انتَ هايشٍ معي نَحَ امشيخ، وما نْحِنْ لاهين."

المعنى: "وا يزيد! بودّي أن ألتقيك إذا كنتَ ذاهباً معي نحو الشيخ، وما نحن بلاهين [=متأخرين]."

ولتحليل المفردات: "بدّي= بودي"، "واشع= قابل"، "أيل= إذا"، "هايش= ذاهب"، "نحَ= نحو"، "لاهين= متأخرين"، والتفصيل في شرح دلالة هذه المفردات وأصولها موضوع يطول، محلّه من معجم تحت الإعداد. وإنما الشاهد هنا استعمال الهمزة للنداء.

ونداؤهم بهمزة النداء، "أ.. فلان"، ولا يستعملون: ياء النداء.

أمّا ترخيم المنادى المفرد، فظاهرة شائعة لديهم، كما هي لدى العرب، من نحو قول (امرئ القيس):

أَحارِ، تَرى بَرقاً أُريكَ وَميضَهُ ... كَلَمعِ اليَدَينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

في نداء (حارث). فهم يرخِّمون المنادى على النحو الآتي: أ مَحَهْ= أ محمّد؛ أ أحْمَهْ= أ أحمد؛ أ سِلَه= أ سليمان؛ أ سَلَهْ= أ سَلامَةْ (اسم امرأة)؛ أسلْمَهْ= أ سلمان؛ أقاسْ = أ قاسم؛ أعلْ= أ علي؛ أمَسْعَهْ= أ مسعود؛ أ حَسْ= أ حسن؛ أ حِسَهْ= أ حسين؛ أ جِبْرَهْ= أ جبران؛ أ فَرْحَهْ= أ فرحان؛ أ يَحْ= أ يحيى؛ أ جابْ= أ جابر؛ أ سالْ= أ سالم؛ أسْعَهْ= أ أسعَد؛ أ سَعَهْ= أ سعيدة (اسم امرأة)؛ أ فاطْ= أ فاطمة؛ أ مَشْ= أ مَشْنيَة (اسم امرأة)؛ أ جَمْ= أ جميلة؛ أ عايْ= أ عائشة. بينما نجدهم ينادون اسماً كـ"مفرح" هكذا: أ فَرِّحْ، بالحذف من أوّله لا من آخره، تحاشياً- فيما يبدو- لدلالة غير مستحبة، أو ملتبسة، فيما لو حذفت الحاء فقيل: "أ مفرّ".

إلا أنه لا يمكن أن يُرخِّموا الاسم الثلاثي المتحرك الوسط، كعُمَر، أو جُبَر. وقد كان هذا موضع جدل لغويّ، فأقرّه الكوفيون وأنكره البصريون. قال المتنبي:

أَجِدَّكَ ما تَنْفَكُّ عانٍ تَفُكُّهُ   عُمَ بْنَ سُليمانَ ومالٌ تُقَسِّمُ

أي: "عُمَر بن سليمان"(١).

ويُلحظ في لهجات فَيْفاء، سواء في النداء أو في غير النداء، ظاهرة مطّ الحركة، للتذكُّر، ونحوه من أسباب التوقّف. كقولهم: "قالا..."، أي "قالَ...". أو "نا بوجا/ نا بوكا"، أي "نا بوجَ/ نا بوكَ"، بمعنى: "أنا أبوكَ"(٢). أو "قِدِي قلت لو"، أو "قيدْ قلت لو"، أي "قدْ قلت له". وهم لا يحقّقون نُطق الياء في "قِدِي" و"قيدْ"، ولكنها تسمع كالألف الممالة. وهي ظاهرة سجّلها قديماً (سيبويه)(٣) في الكلام العربي، حيث قال: "يقول الرَّجُل، إذا تذكّر، ولم يُرِد أنْ يَقْطَع كلامَهُ: "قالا": فَيَمُدُّ قالَ؛ و"يقولو"(٤)، فيمدُّ يقولُ. و"من العامِي"، فيمدُّ العامِ؛ سمعناهم يتكلّمون به في الكلام ويجعلونه علامة ما يَتذكَّر به، ولم يَقطع كلامه. فإذا اضطُرُّوا إلى مثل هذا في السَّاكن كَسَرُوا. سمعناهم يقولون: "إنه قَدِي"، في قَدْ، ويقولون: "ألي"، في الألف واللام، يتذكّر الحارث ونحوه".

[ث ن ى] المُثَنّى: من الشائع لدى اللغويين المحدثين أنه لم يَعُد مستعملاً اليوم، ولاسيما إذا أُسند الفعل إليه. وذلك صحيح في معظم اللهجات العربية الحديثة. إلاّ أن ذلك ما يزال مستعملاً في لهجة فَيْفاء في ضمير المخاطب: "أنتما". وفي لهجة بني مالك، أبناءِ عمّ أهل فَيْفاء كذلك، إلاّ أن لديهم إضافة إلى ذلك

(١) انظر: المتنبي، ديوانه، تح. عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي)، ١٩٨٦م، ٤: ٢١٢.

(٢) ينطقون الكاف في كلّ الأحوال صوتاً شبيهاً إلى حدٍّ ما بالجيم المعطّشة، يُشبه نطقَ بعض اللهجات العراقيّة الكافَ.

(٣) الكتاب، تح. عبدالسلام محمّد هارون (بيروت: عالم الكُتُب)، ١٩٨٣م، ٤: ٢١٦.

(٤) في "الكتاب": "قالوا"، وهو غلط.

إسنادَ الفعل إلى المثنى، فيقولون مثلاً: "هيْشا لمكان كذا وكذا"، و"هيشا": تعني اذهبا. ولكنهم لا يطّردون في الثنية، فقد يستعملون الجمع. وهذا أمر معهود في الفصحى كذلك. فمن نموذج سجّله (العقيلي)[١]: "بوُدِّي (تشهدان) نَحَوْ (أنتما) وشَوْفتين".

٢- نماذج من البنية المعجمية:

[ث و ب] ثاب، يَثُوب، ثِبْ: أي استراح.

وهي لهجة حِمْيَرِيَّة قديمة، فقد جاء في كتاب (ابن السكّيت، -٢٤٤هـ) "إصلاح المنطق"[٢]: "قال الأصمعي: دخل رجلٌ من العرب على ملك من ملوك حِمْيَر، فقال له: ثِبْ- وثِبْ بالحِمْيَرِيَّة: اقْعد- فوَثَبَ الرجل فتكسّر، فقال الحِمْيَري: ليس عندنا عربيت، من دخل ظفار حمّر، قال الأصمعي: حمّر، تكلّم بكلام حِمْيَر"[٣]. ونَسَبَ (ابن فارس، -٣٩٥هـ) "الصاحبي في فقه اللغة"[٤] القصة إلى زيد بن عبدالله بن دارم، وأضاف أن الملك كان على جبل مشرف، فلمّا قال: "ثِبْ"، قال زيدٌ: "لتجدني أيها الملك مِطواعاً"، ووَثَبَ من الجبل. ولعلّ الحكاية- أو المبالغة في تفاصيلها، في الأقل- محضُ اختلاق، للتأكيد على الفروق اللهجية بين لغة اليمن ولغة عرب الشمال، التي قد تصل إلى أن لغة حِمْيَر ليست

---

(١) المخلاف السليماني، ١: ٨٦.

(٢) إصلاح المنطق، تح. أحمد محمّد شاكر وعبدالسلام محمّد هارون (القاهرة: دار المعارف بمصر)، ١٩٧٠م، ١٦٢.

(٣) قال (البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر)، في موضوع من كتابه تحت عنوان "ذِكر أخبار الجَزْع"، تعليقاً على هذا: "لو قيل: مَن مَلَكَ ظفار، تفنَّنَ؛ فخاطب كلَّ إنسانٍ بما يَعرف، كان أصوب!" ولكن مَن لملك ظفار بمعرفة أنّ "ثُبْ" لدى العدنانيّ ستُفهم على ذلك النحو، أي على أنها "ثِبْ"! والحكاية بمجملها مصطنعةٌ، بل غير معقولة، كما نرى، وإنما سيقت إمعاناً في تصوير الاختلاف اللهجيّ بين عربيّة الجنوب وعربيّة الشمال.

(٤) الصاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح. عُمَر فاروق الطبّاع (بيروت: مكتبة المعارف)، ١٩٩٣م، ٥٤.

بعربية: "ليس عندنا عربيت"! انطلاقاً من مقولة (أبي عمرو ابن العلاء): "ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيّتُهم بعربيّتنا"، التي ساقها (الجُمَحي، -٢٣١هـ) "طبقات الشعراء"[١]. إلا أن ذلك الشاهد الذي ساقوه من خلال حكاية "ثب" لا شاهد فيه. والحقّ أن ابن السكّيت وابن فارس، كمعظمِ لغويّينا القدامى، نَقَلَةٌ، تُعوزهم المعرفةُ الدقيقةُ باللهجات، وهم يوردون مثل تلك الحكاية بلا تحليل ولا تمحيص، وإلاّ فإنه- إذا كانت لهجة الحميريّ تلك لهجةً يمانية كلهجة فَيْفاء اليوم، وهو الراجح- فـ"ثِبْ" في الحكاية من "ثَوَبَ"، لا من "وَثَبَ"، كما فهم اللغويون، وساقوا تلك الحكاية ليستنتجوا منها افتراق لغة حمير عن لغة عدنان. ولهذا يقال بلهجة فَيْفاء: "ثابَ، يثوب، ثِبْ"، أي قَعَد أو استراح. و"ثِبْ" هنا هي: "ثُبْ"، إلاّ أنهم يُميلون الضمّ إلى الكسر في مثل هذا الموضع. و"ثاب، يثوبُ، ثُبْ": عربيّةٌ لا غُبار عليها، بمعنى رجَع وعادَ إلى موضعه وجلس في مجلسه. ومنه مَثَابُ البئر: مكان الساقي على فم البئر. والمَثَابَة: المُجتَمَع والمنزل[٢]. يقول (ابن مقبل)[٣]:

أَلَمْ تَرَ أنَّ القَلْبَ ثَابَ وأَبْصَرَا وجَلَّى عَمَايَاتِ الشَّبَابِ وأَقْصَرَا

وعليه، فاستعمال "ثُبْ، أو ثِبْ (حسب نطقها في اللهجة)"، بمعنى: "اقعد، أو استرح، أو اهدأ"، ليس بغريب الدلالة عن معاني مادة "ثَوَبَ"، حتى يُستنتج منها حكمٌ تعميميٌّ بأن الحميريّة ليست كعربيّتنا.

وفي مقالة نشرها الباحث العراقيّ (علي الشوك)[٤] حول ترجمةٍ عربيةٍ أولى لقصيدة فينيقيّة عُمرها ٢٨٠٠سنة، يشير في تعليقه على القسم الثاني من

(١) طبقات الشعراء، تح.جوزف هل (بيروت: دار الكُتُب العلمية)، ١٩٨٢م، ٢٩.

(٢) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، (ثوب).

(٣) ديوان ابن مُقْبِل، تح. عزَّة حسن (دمشق: مديرية إحياء التراث القديم)، ١٩٦٢م، ص١٤٢: ب١.

(٤) انظر: صحيفة الحياة، العدد١١٥٥٦، السبت ٨ أكتوبر ١٩٩٤م= ٣ جمادى الأولى ١٤١٥هـ، ص٢٠.

القصيدة قائلاً: "جاء السطر الأوّل... باللغة الفينيقيّة على النحو الآتي: "أ ن ك. ك ل م و. ب ر. ح ي ء- ي ش ب ت. ع ل. ك س ء. أ ب ي"، ويعني بالحرف الواحد: "أنا. كيلاموا [كذا]. ابن. حي- وثبت (أي جلستُ). على. عرش. أبي." ذلك أن (أ ن ك) الفينيقيّة تعني "أنا"، والكلمة التي تُقال للجلوس بالفينيقيّة هي (ي ش ب)، أي (يَثِب)، وهذه تعني (يجلس) في اللغات الساميّة، عدا العربية التي ذهبت إلى معنى (الوثوب)." والحق أن "ي ش ب ت" تعني: و"ثُبْتُ". وقول الباحث إن العربية قد "ذهبت إلى معنى (الوثوب)" في الكلمة، فيه إغفال للغة الحميريّة (العربية)، التي كانت فيها "يَثُوْب" بمعنى يجلس، كما أن فيه إعادة لذلك الخطأ القديم، الذاهب إلى أن الملك الحميري قال: "ثِبْ"، من الوثوب، وهو إنما قال: "ثُبْ" من الثَّوْبِ والثَّوَبان. ذلك أن "ثُبْ" - كما سبق- من "ثَوَبَ"، لا من "وَثَبَ". وما زالت مستعملة بذلك المعنى في لهجات جبال فَيفاء، كما تقدّم.

والمثابة: بيت في جبل آل الداثر. وربما سُمي المثابة العليا، تمييزاً له عن بيت أسفل منه قليلاً، أُلحق باسمه، فأُطلق عليه اسم المثابة السفلى.

"والمَثَابَة: الموضع الذي يُثاب إليه، أي يُرجع إليه مرةً بعد أُخْرَى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾. وإنما قيل للمنزل "مَثَابَة" لأن أهله ينصرفون في أمورهم ثم يثوبون إليه"(١).

[ذ و] ذا/ ذي: يستعملونها بمعنى (الذي). يقول أحدهم مثلاً: "يَقَعْ ذا وَقِعْ"، أي: "ليحدث ما يحدث". أو: "مِنْها امْرَجِل ذي جانَ مَعَجَ؟"، أي: "من هو الرجل الذي كان مَعَكَ؟". ولعلّ أهل الجبل الأسفل أميل إلى استعمال: "ذا" بدل "ذي". وفي لهجة بني مالك يستعملون: "ذا" كذلك.

(١) ابن منظور، لسان العرب، (ثوب).

واستعمال "ذو" بمعنى "الذي" لهجة قديمة، وصفها اللغويين في قبيلة طيء. ومنها قول الشاعر:

فقولا لهذا المرءِ ذو جاء ساعياً   هَلُمَّ؛ فإن المشرفيّ الفرائضُ

[ذ ي] ذِيْ، ذَيَّا: هذا. وقد قال (المتنبي، ديوانه، ٢: ٢٢٦):

أذا الغصنُ؟ أم ذا الدِّعْصُ؟ أم أنت فِتْنَةٌ؟

و(ذَيَّا) الذي قَبَّلْتُهُ البَرْقُ أم ثَغْرُ؟!

قيل: "ذيًّا" تصغير اسم الإشارة "ذا"، غرضه الإشارة إلى شِدَّة قُرب المشار إليه أو صِغَره.

وما يعرف من الاستخدام اللهجي يؤيد الغرض الأول لهذا التصغير دون الآخر، أي: الإشارة إلى شِدَّة قُرب المشار إليه لا إلى صِغَره بالضرورة.

[ر ب ص] تَرَبَّص، يتْـرَبَّص، اتربَّص (وينطقون الصاد سين تاء): تأنَّى في مشيه.

وفي القرآن الكريم: "يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ، وَتَرَبَّصْتُمْ، وَارْتَبْتُمْ، وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ."(١). فالتربّص يأتي بمعنى التأنّي، كما تدلّ اللهجةُ بما حفظته من هذا الأصل الدلاليّ، ثم صار يعبَّر بذلك مجازاً عن عدم الإقدام على شيء عموماً، وقد يكون لترقّب ما تنجلي عنه الأمور، أو لتدبير مكيدة. وجاء في خبر موقعة الجمل، مثلاً: "ولمّا فرغ عليٌّ من الواقعة أتاه الأحنف بن قيس في بني سعد، وكانوا قد اعتزلوا القتال... فقال له عليٌّ: لقد تَرَبَّصْتَ. فقال: ما كنتُ أراني إلاّ قد أحسنتُ..."(٢).

[ر ف ص] رُفْصَة/ رُفْستَة: دَرَجَة، في مبنى أو طريق، جمعها: رُفَص/

(١) سورة الحديد، ١٤.

(٢) النويري (- ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. عماد علي حمزة (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٢٠٠٤م، ٢٠: ٤٩.

رُفَسْت. وأرْفصَ/ أرفَست، يُرْفص/ يُرْفست، ارْفص/ ارْفست: بمعنى ساعد على الصعود، كأن يدعم دابّة أو يدفع إنساناً من ورائه ليصعد درجاً. ولا يسمّون السُّلّم الخشبيّ ونحوه من السلالم المتنقّلة: رُفصة، بل يسمّونه: مرقايٍ/ مرقاء.

ويبدو للكلمة أصل عربيّ مهمل، ذلك أن معاجم اللغة تذهب إلى أن ارْتَفَصَ السِّعْرُ بمعنى غَلاَ وارْتَفَعَ[1]. لكن المعاجم تقف عند هذا، موردة معنى آخر لرُفْصَة، على أنه مقلوب: فُرْصَة. ويقول (الأزهري)[2] حول ارْتَفَصَ السِّعْرُ بمعنى غَلاَ وارْتَفَعَ: "كأنه مأخوذ من الرُّفْصة وهي النوبة." والواقع أن اللهجة تقرّب إلينا مأخذ قولهم ارْتَفَصَ السِّعْرُ بمعنى غَلاَ وارْتَفَعَ؛ فارتفص بمعنى: طلع وارتفع وصعد، كمن يصعد رُفْصَة. غير أن المفردة أُهملت في مدوّن اللغة فغاب معناها هذا عن الأذهان. ولذلك فإن تعليل الأزهري غيرُ واردٍ، لكنه لم يجد غيره، ولو كان يعرف المفردة اللهجيّة ومعناها لاتضح لديه مأخذُ قولهم ارْتَفَصَ السِّعْرُ بمعنى غَلاَ وارْتَفَعَ.

[س ل ط] السَّلِيْطُ: الزيت، وغالباً ما يطلق على زيت (السِّمْسِم). ومعروف أن السِّمْسِم من أهم المحاصيل الزراعية في جنوب الجزيرة، ومعاصره من أشهر تراث تلك المنطقة الإنتاجي.

جاء في (ابن منظور)[3]: "السَّلِيْطُ: عند عامة العرب الزيت، وعند أهل اليمن دُهْنُ السِّمْسِم؛ قال امرؤ القيس: أمالَ السَّليطَ بالذُّبال المُفَتَّلِ.

وقيل: هو كل دُهن عُصر من حَبّ؛ قال ابن بري: دُهن السِّمْسِم هو الشَّيْرَجُ والحَلُّ؛ ويُقَوّي أَنَّ السَّليط الزيتُ قولُ الجعديّ:

يُضيءُ كَمِثْلِ سِراجِ السَّلِيـ ـطِ، لم يَجْعَلِ اللّهُ فيه نُحاسا

(١) انظر: الجوهري، صحاح اللغة، (رفص)، وغيره.

(٢) تهذيب اللغة، (رفص).

(٣) (سلط).

قوله لم يجعل اللّه فيه نُحاساً أَي دُخاناً دليل على أَنه الزيت لأَن السليط له دُخان صالِحٌ، ولهذا لا يُوقد في المساجد والكنائس إلا الزيتُ؛ وقال الفرزدق:

ولكنْ دِيافِيٌّ أَبُوه وأُمُّه   بِحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقارِبُهْ

وحَوْرانُ: من الشام والشأْم لا يُعْصَرُ فيها إِلا الزيتُ. وفي حديث ابن عباس: رأَيت علِيّاً وكأَنَّ عَيَنَيْه سِراجا سَلِيطٍ؛ هو دُهْن الزيتِ". وقد سقتُ هذا الشاهد المطوّل لأبيّن ما تتضمنه اللهجات من رصيد لغوي كان كفيلاً بالإجابة عن كثير من الأسئلة اللغوية. فابن بري يدير جدله وكأنه يتعامل مع لغة أجنبية لا يعرفها، فيُضطر إلى الاستدلال بالشِّعر على أن السليط ليس بدهن السِّمْسِم وإنما هو الزيت، أي زيت الزيتون، أو دهنه. في حين يطابق ما يعرفه أهل فَيْفاء عن "السليط" مع ما جاء في مستهلّ كلام ابن منظور عنه من أنه: الزيت عموماً، وعند أهل اليمن دُهْنُ السِّمْسِم خاصة. أمّا استدلالات ابن بري فلا تناقض ذلك؛ لأن قول الجعدي قائم على الاستدراك، فهو- بعكس ما أراد ابن بري- دالّ على أن السليط هو زيت السِّمْسِم، ولمّا كان كذلك، وكان له دخان، استدرك الشاعر نفي الدخان عن زيت السراج الذي شبّهه بسراج السليط، أي عن ذلك (الزيت الاستثنائي المميّز) الذي امتدح إضاءته، قائلاً "لم يَجْعَلِ اللّهُ فيه نُحاسا"، كما قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾(١). وأوهى من ذلك استدلالُه بأن "حَوْرانُ: من الشام والشأْم لا يُعْصَرُ فيها إلا الزيتُ." وكأن قد ضمن أن أهل الشام لا يعصرون من الحبّ سوى الزيتون، بل كأن لا علاقة لما عرف في اليمن بما يعرف في الشام، على الرغم من علاقاتهما التجارية القديمة، من خلال "رحلة الشتاء والصيف" قبل الإسلام. وكانت تغنيه عن الخوض في هذا كله معرفة لغة العرب التي كانت ما تزال دائرة على الألسن. وهذا يقدم نموذجاً شاهداً

(١) سورة الصافات، ٤٧.

على أهمية مثل هذا التأصيل اللغوي، بدراسة الفصحى في ضوء اللهجات التي ما تزال متداولة اليوم. كما يدلنا على حاجة العربيّة إلى ثورة في لغتها ونحوها اللذين صنع لنا تراثَهما (أعاجمُ) أو (غرباءُ) عن الذوق العربي والسليقة العربيّة والبيئة العربيّة، فأفسدوا وأصلحوا. ولن يتأتّى ذلك إلاّ بإعادة النظر النقدي في ذلك التراث في ضوء ما تبقّى حيّاً من العربيّة في الاستعمال الفطريّ الطبيعي للّغة.

[ع ن ق] العَناق: الشاة.

وفي (ابن منظور)(١): "العَناق: الأنثى من المَعز؛ أنشد ابن الأعرابي لقُرَيْطٍ يصف الذئب:

حسبت بُغامَ راحلتي عَناقاً وما هي، ويْبَ غيركَ، بالعَناقِ

... وقال الأزهري: العَناق الأنثى من أولاد المِعْزَى إذا أتتْ عليها سنة، وجمعها: عُنُوْق، وهذا جمع نادر..." قلْتُ: ذاك الجمع النادر لعَناق على عُنُوْق، الذي أشار إليه، مستعمل في لهجة فَيْفاء، ولكن بلفظ: "عِنْوَق"، لا "عُنُوْق".

[غ ر ب] الغَرْب: في لهجات فَيفاء، إداوة الماء الكبيرة.

والكلمة فصيحة: فالغَرْبُ من معانيها: الرَّاوِيَة. والرَّاوِيَة: المزادة. وبهذا المعنى فسَّر (الليثُ) "الغَرْب" في بيت لبيد:

فَصَرَفتُ قَصراً وَالشؤونُ كَأَنَّها غَرْبٌ تخبُّ بِهِ القَلوصُ هَزيمُ

إلاّ أنه اعتُرِض عليه، بأن المعنى: "الدَّلْو الكبيرة"، لا "الرَّاوِيَة"(٢). ناظرين في ذلك إلى المعنى، وأن شؤون العينين تهلّان بالدمع الغزير، والغَرْب – بمعنى: المزادة، أو الإداوة– ليس كذلك. وفيه نظر؛ لأنه لا يَعدم أن يرشح الغَرْب– بمعنى المزادة– بالماء الغزير، فتكون صورة الماء السَّرِب كالعين الدامعة، ولا سيما مع حركة القلوص

(١) اللسان، (عنق).

(٢) انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، (غرب).

الهزيم، فلا يتعيّن، إذن، أن معنى بيت لبيد : "الدلو الكبيرة"، هاهنا. بل من الحماقة أن يوضع دلو على قلوص تجري؛ لأن الماء حينئذٍ سيتناثر، حتى لا يكاد يبقى منه شيء. كما أن من غير المناسب في التصوير أن يشبّه الدمع بالماء المتناثر من دلو على قلوص تجري!

غير أننا لا نجد في المعجمات اللغويّة تعريف "الغَرْب" بالمزادة (الكبيرة)، أو بالإداوة (الكبيرة)، كما نَعْرِف نحن في بيئتنا؛ إذ لا نسمّي كل مزادة غَرْباً- بل تسمّى: إداوة، أو وَثْبَة إذا كانت صغيرة، فإذا كانت كبيرة، فـ: غَرْب- وإنما يرد وصفها في المعجمات بالكبيرة حين يقال إن معناها "الدلو الكبيرة". ولعلّ هذا ممّا لم تُلمّ به معجماتنا، فتَجبر نقصَه اللهجة.

[ه ص ع] الهَصْعَة: رقصة شعبية، ذات إيقاع سريع، كثيراً ما يكون من بحر الرمل (فاعلاتن/ فاعلاتن/ فاعلاتن). وتشبه العرضة. ولعل أصل كلمة "هَصْعَة": "هَسْعَة"، بالسين، من "هَسَعَ"، أي أسرع. جاء في (الزبيدي)(١): "هَسَعَ، كمَنَعَ، أهمَلَه الجَوْهَرِيُّ وقالَ الصّاغَانِيُّ: أيْ أسْرَعَ، وكذلكَ هَرَعَ. وهاسِعٌ، وهُسعُ كزُفَرَ وزبير ومنبر: أبْنَاءُ الهَمَيْسَعِ بن حِمْيَرَ بن سَبإٍ. قال ابن دريد قد سمّوا هسعاً وهَيْسُوعاً قالَ: وهذه لُغَةٌ قَديمَةٌ لا يُعْرَفُ اشْتِقاقُهَا، قالَ: وأحْسبُهَا عِبْرانيَّةً أو سُرْيانِيَّةً، قالَ الصّاغَانِيُّ: لقَدْ أبْعَدَ ابنُ دُرَيدٍ في المَرَامِ، وأبْعَطَ في السَّوْمِ، ولو عَلِمَ منْ أيْنَ يُؤْكَلُ الكَتِفُ، ومنْ أي الغُصُون يُقْتَطَفُ، لتَنَصَّلَ من ارْتَكاب الكُلَف، وهذه الأسْمَاءُ عَرَبيةٌ حِمْيَرِيَّة، واشْتِقاقُها من هَسَعَ: إذا أسْرَعَ، فتأمَّلْ ذلكَ." فإذن ما عَدَّه ابن دريد لُغَةً قَديمَةً لا يُعْرَفُ اشْتِقاقُهَا، وحسبه عبرانيّاً أو سريانيّاً، ما زال على ألسنة العامّة في جبال فَيفاء. ولا غرابة في نطق "هَسْعَة": "هَصْعَة"؛ فقلب السين صاداً- والعكس كذلك- أمر مألوف في اللهجات.

(١) تاج العروس، (هسع).

[ه ل م] هَلِم: أي أَقْبِل. وتُستخدم كذلك بمعنى: الجهة الأقرب. فيُقال مثلاً: "هَلِمْ من مكان كذا"، أي في موضع أقرب من ذلك المكان.

وقد جاء في (ابن منظور)(١): "هلُمَّ: بمعنى أَقْبِل، وهذه الكلمة تركيبيَّة من ها التي للتنبيه، ومن لُمَّ، ولكنها قد استعملت استعمال الكلمة المفردة البسيطة."

وقد خاض اللغويون مخاضات كثيرة في تفسير الكلمة واختلفوا(٢). ولعلّ اللهجة تُحلّ ذلك الخلاف، وتلك الاجتهادات في تفسير أصل الكلمة، بما ينفي ما ذُهب إليه من أن أصلها ها التي للتنبيه و"لُمَّ"؛ حيث تنبئنا اللهجة عن أصلٍ لم يسجّل في المعاجم، وهو أن "هلم" بمعنى: مكان أقرب، كما أشرنا في قولهم: "هَلِمْ من مكان كذا"، أي في موضع أقرب من ذلك المكان. وهم يعرّفون الكلمة بـ(أل) التعريف، مما يدل على أنها اسم، فيقولون: "بها الهلم"، أي "إنه في المكان الأقرب". وعليه فكأنّ قول العرب: "هلمَّ"، يعني: "للتتخذ مكاناً "هلم"، أو أقرب"، أي اقترب. ولو عُلم ذلك لدى اللغويين السابقين لما خاضوا تلك المخاضات البعيدة في التأويل. وهو ما يشهد بضرورة دراسة اللهجات المعاصرة، لما تحمله من جذور مهملة تؤصّل كثيراً من استعمالات اللغة العربية.

٣- نماذج شعرية:

لمّا زار المستر فِلْبِيْ، هاري سانت جون (H. ST. J. B. Philby)، المتسمّي بالحاج عبدالله فيلبي، جبال فَيفاء وبني مالك، سنة ١٩٣٦م(٣)، أنشد جدّي الشاعر علي بن سالم آل حالية الخسافي الفَيفي، وذلك في سوق النفيعة، في حشدٍ كبيرٍ من الناس:

(١) لسان العرب، (هلم).

(٢) انظر: م.ن.

(٣) مسجِّلاً زيارته في سِفْرِه المعروف: "مرتفعات الجزيرة العربيّة Arabian highlands"، الفصل ٢٧، بعنوان: "جبال تهامة". وعُرف اسم فِلْبِيْ على ألسنة الناس في فَيفاء بـ"ثِلبي"، بإبدال الفاء ثاء.

يا لا بَتيْ نبّهْتِ انا في حالي المَنامْ   وجا المَنبِّهْ قالَ ليْ : آتفْهَمِ الكلامْ

وتْصَدِّق اليَقيْنْ

حلِّيَةْ فَيْفا خَسَــارَةْ   خَلْف تصويرِ امنصارَةْ

ما بَقِي شَوْرٍ يَزِيْنْ

والحَقيْقِ اللّي معَ اللهْ قدْ دَرَى بُو(١)

ثم أتبعه بـ(الدِّلْع) التالي– والدِّلْع لديهم من ألوان الإنشاد– :

خِلْت بَرَّاقٍ على الدّنيا بِدِيْمَتُو   لَوْ ثلاثينْ عام تِتْغَازَرْ مَعِيْنَتُو

ما يَخْلُفُو ظَما

مِنْ على ارضِ الشَّامْ لاحِي   للِيَمَنْ ذي كانْ صاحي

سَيْل يَدْمُرْ كلِّ مال

والبَحرْ يرْتَجّ مِنْ قُوَّةْ طُلُوْعُو(٢)

والشاهد هنا هو في ما يلفت النظر في النصّين من البناء الإيقاعي . ولا شكّ أن هذا النمط كان يُنشد إنشاداً، معتمداً الإيقاع فيه على السماع، فالمَطْلَع من النص الأوّل بشطرَيه جاء على (مستفعلن/ مستفعلن/ مستفعلن/ مُتَفْ). ثم جاء شطرٌ أقصر يمثّل (الدَّوْر الأوّل)– حسب مصطلح الموشّح– في قوله : "وتْصَدِّقِ

(١) ومعنى النصّ: أن الشاعر نُبِّهَ من منامه الحالي اللذيذ، وقال له المُنَبِّه : أتفهم الكلامَ؟ وتصدِّق اليَقينَ؟ . . خسارة أن يَحُلّ المرء في جبال فَيفاء بعد أن صوَّرها النصارى (إشارة إلى المستر فِلْبِيْ!)، ولم يعد هنالك من رأيٍ يَصْلُح أو مشورة تتّبع: "شَوْر" . ومهما يكن من أمرٍ، فالحقيقة التي مع الله (أي في علم الله)، لا يعلمها إلاّ هو . إذ لم يَتقبَّل الشاعر ما تقبَّله غيره وصدّقه، وكأن زيارة فِلْبِيْ وتصويره فَيفاء، لأوّل مرةٍ في تاريخها، كان نذير شؤم، لا يعلم عواقبه إلاّ الله، وكان هذا في نظر ذلك الجيل مؤشِّراً على نهاية الزمان .

(٢) خِلْت : لمحتُ وشِمْتُ، أو ظننتُ، كتعبير النابغة : "وَإِنْ خلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسعُ" . برّاقٍ : لمع بَرْق . ديمتو : ديمَتُهُ . لو : لهُ . تتغازر : تتكاثف غزارتُها . مَعِيْنَتُو : مَعِيْنَتُهُ/ مَعِيْنُهُ أي غَيثه . ما يخلفو : لا يخلُفُهُ أو يعقبهُ . ظما : ظمأ . لاحي : لاحَ . ذي : الذي . صاحي : صاحٍ/ صَحْوٌ . طُلُوْعُو : طُلوعُهُ، أي السيل الجارف الذي صوّره .

اليَقِيْنْ" : (مستفعلن / مُتَفْ) . ينتقل منه إلى منظومة نغميّة أخرى في القفل الثاني على : (فاعلاتن / فاعلاتن)، (فاعلاتن / فاعلاتن)، يعقبه الدَّوْرُ الثاني : "ما بَقِيْ شَوْرٍ يَزِيْنْ" (فاعلاتن / فاعلاتن)، ويختم بما يمكن أن يُعدّ الخَرْجَة : "والحَقِيْقِ اللّي معَ اللهْ قدْ دَرَى بُو" : (فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلاتن) . وعلى هذا المنوال النصّ الآخَر . وهو نمطٌ شبيهٌ بالموشّح الأندلسيّ، كما ترى، إلاّ أنه يختلف عن الموشّح– وَفق بنائه المعروف– في ازدواج الوزن بين (مستفعلن وفاعلاتن) من ناحيةٍ، ومن ناحية أخرى في توزيع القوافي بين أقفال النصّ وأدواره؛ فجاء في هذا بعكس الموشّح، الذي تتّفق فيه قوافي الأقفال وتتنوّع قوافي الأدوار، كما هي نماذج الموشّح الأكثر شهرةً . وإنْ كانت نصوص أخرى من شِعر فَيفاء تتفق مع تلك الطريقة في توزيع القوافي الموشّحيّة . ونماذج هذا البناء الموشّحيّ معروفة في شِعر فَيفاء، إلى جانب القصائد ذات الشطرين المختلفَي القافية .

وبذا فلعل تلك الأبنية الشبيهة بالموشّح الأندلسي تؤيّد القول بأن الموشحَ مشرقيّ الجذور، تطوّر في الأندلس(١) . ولا يَسُوْغُ بحالٍ تصوّرُ العكس، أي أن

(١) ولقد أشار (ابن معصوم (ق١١هـ)، سُلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ مصْر، (مصر: طبعة محمد أمين الخانجي الكتبي)، ١٣٣٤هـ، ٢٤٣– ٢٤٤) إلى أن لأهل اليمن نظمٌ يسمّونه الموشَّح، غير موشّح أهل المغرب، من حيث إن موشّح اليمن عاميّ، فهو كالزجل. فيما أشار إليه (الزبيدي، تاج العروس، (حمن) باسم "الحميني" ، ذاكراً أنه ضَرْبٌ من بحور الشِّعر المحدثة، وأنه المعروف بالموشّح. وجاء (الشرواني، أحمد محمّد الأنصاري اليمني، نفحة اليَمن فيما يزول بذكره الشَّجَن، (مصر: مطبعة التقدم العلميّة)، ١٣٢٤هـ، ٩٢– ٩٥) مؤكِّداً أن الحميني لا يكون إلاّ ملحوناً، وأن أهل اليمن هم فرسانه، مورِداً بعض نماذجه. ثم نَقَلَ ذلك (الرافعيّ)، تحت عنوان "الموشَّح الملحون" ، في كتابه (تاريخ آداب العرب، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠) : ٣ : ١٢٣) . وقد وضع الباحث (عبدالرحمن الرفاعي) كتاباً بعنوان "الحميني: الحلقة المفقودة في امتداد عربية الموشّح الأندلسي" ، (جازان: النادي الأدبي، ٢٠٠٠)، متّكئاً فيه على مَن سبقوه– ومنهم (أحمد محمّد الشامي)، الذي يرجع لديه إلى كتابين: "قصة الأدب في اليمن" ، و"من الأدب اليمني" – محاولاً إثبات أن الحميني ضربٌ شعريٌّ عربيٌّ قديمٌ، وأنه الأصل في الموشّح الأندلسي. والنماذج الفَيفيّة، كالمذكورة هاهنا، تدلّ على أن ذلك الضرب=

أولئك العوامّ المعزولين، الذين توارثوا شِعرهم- ولم يسمعوا بموشحٍ ولا زجلٍ قط، ولا حتى بأندلس- هم من تأثّروا بالموشّح الأندلسيّ وقَفَوْا آثاره! وكل الجدليّات حول نشأة الموشّح الأندلسي، وتولّده عن الغناء في جزيرة إيبيريا، أو تأثره بالترابادور- على بعض المقولات- أو بغناء الجوّالين في إسبانيا وأوربا، يبدو لا أصل له، إلاّ أصلٌ واحدٌ، هو الجهل المطبق بالتراث العربيّ الشعبيّ، الذي يُثبت أن الشكل الموشّحي هو من أنماط الشِّعر المتوارثة، المهاجرة، وإن اختلفتْ التسميات(١).

= الموشَّحيّ من الشِّعر ليس بمقصورٍ على الحواضر، ولا على الحميني، وإنما الحميني لدى أهله مصطلحٌ على ضُروب غنائيّة منه. ولربما عُمِّم إطلاق الحميني حتى شمل من الشِّعر الغنائي اليماني ضُروباً لا علاقة لها ببنية الموشّح الموسيقيّة. ولذا فإن بعض ما عُدّ موشَّحاً يمانيّاً، وسمّي بالحميني، نجده لا يعدو نظماً عامّيّاً ببعض التصرّف في البحور المعروفة، مع تنويع القوافي، كأن يكون النصّ من البسيط، أو الخفيف، أو الرجز- تاماً أو مجزوءاً أو مشطوراً- مع ازدواج التقفية. فأيّ توشيحٍ في هذا؟! إنما هو قصيدٌ خالصٌ، أو رجزٌ، وبعضه تسميطٌ، ولا يختلف بعضه عن ضروب النظم النَّبَطي، إلاّ باللهجة. فيما تبدو النماذج الفَيفيّة- بتنوّع الأغصان فيها والقوافي، وربما الوزن- أوضح شبهاً بنائيّاً بالشكل الموشَّحي الأندلسي، المتمثّل في منظومة الأقفال والأدوار. إلاّ أنه لا يُعرف بتسميةٍ خاصّة في فَيفاء، وإنما قد يطلقون تسميات عامّة بحسب المناسبة، كقولهم: المَغْرَد، والزّامل، والدّلْع، والمَـرْعَة، وكلّه لديهم يُسمَّى شِعراً، على اختلاف ضُروبه وألوانه، دون تمييزٍ اصطلاحي. كما أنه ليس وليد الغناء، بل وليد الإنشاد المحض، على طريقة العرب في إنشاد الشِّعر والتغنّي به.

(١) وممّن سَفَّه كلَّ قولٍ بأصولٍ مشرقيّةٍ للموشّح المغربيّ، محتكماً إلى كلام المؤرّخين "الثقات"، مُوقناً بأنه فنٌّ أندلسيٌّ خالص، أصلاً وفصلاً، (عناني، محمّد زكريا، الموشَّحات الأندلسية، (الكويت: عالم المعرفة)، ١٩٨٠م. ونحن نتفق معه في أن هذا ما أدركناه فصيحاً، ومن خلال الكتب التي نقلتها علينا جيلاً بعد جيل، غير أن ما لم ندركه من التراث الضائع، والمضيّع، وغير المدوَّن- مذ أُهمل تدوين تراث الجزيرة، اللغويّ والأدبيّ، فيما عدا وسط نجد- يبدو للمدقِّق: أوسع، وأعرق، وأوثق.

فمن الظواهر التي تلفت نظر الدارس في الدراسات النحوية والتصريفية عامة، والمطالع لتراث سيبويه، وما قيل وما كتب عنه خاصة؛ ظاهرة استخدام مصطلح يكثر تداوله لدى بعض النحويين، وهو قولهم: ظاهر قول سيبويه.

«ظاهر قول سيبويه»

وخلاصة ما ذهب إليه النحويون في هذا الباب ((أن الممنوع من الصرف ثقيل، بخلاف المنصرف، وليس الثقل متأتيا عن كثرة في حروف الاسم، ولا عن ثقل في النطق، فقد يكون الاسم قليل الحروف وهو ممنوع من الصرف، وقد يكون على أطول الأبنية فينصرف.

«رؤية جديدة في علل منع الجموع من الصرف»